نزوى

فصلية ثقافية - العدد المائة وواحد

NIZWA 2020 - 101

الزمن في الخطاب القصصي

القصة العُمانية الحديثة نموذجًا

سالم بن ناصر الجديدي*

ما تركيزنا على الخطاب الحواري في القصص العمانية القصيرة – في هذا المقال – إلا دليلٌ على أن الأدب العُماني لا يعيش القطيعة [1] عما يحدث من تطورٍ في الأدب العربي والعالمي ؛ لأن حدود عُمان لا تقف عند حدودها الجغرافية فحسب، بل تتعداها إلى العالم أجمع، بعدما أصبح العالم قريةً صغيرةً بسبب التقدم التكنولوجي، المتمثل في صنوفٍ كثيرةٍ، من بينها : الأقمار الصناعية وما تبثه من برامج أدبيةٍ وثقافيةٍ ونحوها، السينما وما تصنعه من أفلامٍ قصصيةٍ حواريةٍ – وإن كانت لا تراعي شروط الخطاب السردي [2] –، الإذاعة والتلفزيون وما تعرضه على العالم من قصصٍ وحكاياتٍ ونحو ذلك، الشبكة المعلوماتية – التي تشبه شبكة العنكبوت [3] ؛ لاتساع مداخلها وتشعبها – وما تقدمه من مكتوبٍ ومسموعٍ ومقروءٍ ومرئيٍ في الآداب وغيرها، من هذه النظرة الواسعة لوسائل التواصل التكنولوجي يتبين لنا مدى إسهامها في تطوير الكتابة القصصية [4] ؛ بل عد الذي لا يتعامل مع هذه التقانات والتكنولوجيا " أميًا "، وبالتالي كتابته السردية وإسهامه الثقافي يعد ناقصًا، لما فاته من اطلاعٍ على الجديد من النظريات والأطر والتواصل مع الآخر، يقول سعيد يقطين – في إطار الأمية الإلكترنية، وما تخلفه من آثارٍ سلبيةٍ، وهو يتحدث عن أن الأمية لا يقتصر قياسها لمن لا يعرف القراءة والكتابة ؛ بل أيضًا لمن لا يتمكن من صناعة أدوات الكتابة والقراءة – : " إن الأمر نفسه ينسحب على المعلوميات، لأن التعامل بها يستدعي ثقافةً خاصةً . ومن لا يملك هذه الثقافة، ولو في حدودها الأساسية، لا يمكن سوى اعتباره أميًا (جديدًا) . ويمكن الآن اعتبار التغلب على هذه الأمية الجديدة معيار تقدم الأمم وتخلفها ". [5]

إن المتلمس لواقع القصة القصيرة الحديثة والمعاصرة في عمان يجد أن ثمة تغييرًا طرأ عليها ؛ مما يدل على تطور الكتابة القصصية وتعايشها وتواصلها مع الآخر، إنها تحاول أن تزيح " الأمية الجديدة " عن وجودها، رغم الفجوة الحاصلة بين الواقع والطموح، وظهر ذلك جليًا في مستوى " البنية السردية " للقصة العمانية، فقد تلمس ذلك الدكتور سعيد يقطين – في دراسته المعنونة بـــ (الأصوات السردية في القصة القصيرة بعمان) [6] – عندما وقف يتأمل تشكل المادة الحكائية في القصة، فوجدها تشكلت من بنيتين متجاورتين متناقضتين، وهما : (العتاقة) وهي ما يتصل بالبنيات الاجتماعية والاقتصادية والذهنية الضاربة جذورها في التاريخ . و (الهجانة) وهي مجموع البنيات الجديدة والطارئة والتي تعايش مجموع البنيات العتيقة .[7] وهذه الأخيرة أظهرت التغيرات بشكلٍ واضحٍ وجليٍ في التعامل مع الآخر

* كاتب وباحث من عُمان

الأجنبي وأثره على العلاقات الاجتماعية العمانية ؛ بل ما طرأ أيضًا على لغته من ركاكةٍ وهجانةٍ، إنه يتلمس مدى الحداثة في المادة الحكائية والتحولات الحاصلة في السرد القصصي .

وظهر تطور الكتابة في القصة القصيرة أيضًا على مستوى " توظيف التقنيات السردية الحديثة " بمستوياتٍ مختلفةٍ. فنجد تقنيات (الراوي) ماثلةً فيها، فيقول سعيد يقطين : " في تحليلنا للمتن القصصي العماني،...،نجد أنفسنا أمام هيمنة صوتين سرديين متقاطبين : الناظم الخارجي والفاعل الذاتي." [8] ونجد – كذلك – تقنيات (المكان والزمان) مرصودةً – كما في دراسة د. أيمن محمد ميدان، المعنونة بـ" تجليات الزمان والمكان في القصة العمانية القصيرة : مقاربةٌ أولى "، فالمكان رصد رصدًا أبستمولوجيًا ورصدًا بكل الحواس (البصر، السمع، الشم،...) ؛ بل رصد أيضًا رصدًا سينمائيًا . والزمان تجلت فيه تقنياتٌ متعددةٌ، من بينها: والارتداد إلى الوراء، واستشراف المستقبل، والحلم، وذكر الأزمنة الحقيقية. [9]

هذا التغيير الذي طرأ على القصة القصيرة جعلت " المتابع لما أفرزته الذائقة الإبداعية العمانية في ميدان القص تروعه كثرة هذا المنجز وتنوعه ونضجه أيضًا، وهي كثرةٌ تجعل موقف جبرا إبراهيم جبرا من القصة العمانية مشروعًا بالغ المسكنة، فقد استطاع القاص العماني [10] – وعبر فترةٍ زمنيةٍ قصيرةٍ نسبيًا – أن يبدد الهوة الشاسعة التي كانت تفصل بينه وبين إبداعات أقطارٍ عربيةٍ أخرى تجاوزته زمنًا، وسبقته كمًا وكيفًا، وأن يبدع أدبًا قصصيًا مضخمًا بسماته المحلية دون أن يخاصم القيم الإنسانية الشاملة. "[11]

وما الخطاب الحواري إلا ركيزةٌ أساسيةٌ في السرد القصصي، فمتى ما تطور سرد القصة القصيرة فإن الخطاب الحواري – فيه – يتطور كذلك، وظهر جليًا من خلال مجموعةٍ من الظواهر والتقنيات التي برزت في تشكلاته وتمظهراته [12]، ومن بينها : ظواهر وتقنيات الترتيب الزمني [13]، وسنركز على ظاهرتين منها فقط، هما : الاسترجاع والاستباق، وأنا هنا لا أدعي أنني سأحيط بكل ما فيهما من تقنياتٍ ؛ بل أذكر بعضها لتكون بدءً لأبحاثٍ ستأتي لتكمل المشوار، وتبرز سياسته السردية .

من ظواهر وتقنيات " الترتيب الزمني " (Temporal Order) في الخطاب الحواري : يظهر فيها : الاسترجاع (Analepse) والاستباق (Prolepse)، ويعتبران – في القصة الحديثة – جزءًا أساسيًا من التشكيل الفني للبناء القصصي، حيث تحصل المفارقة السردية [14] الزمنية، مما يؤدي إلى " توقف استرسال الحكي المتنامي، وتفسح المجال أمام نوعٍ من الذهاب والإياب على محور السرد انطلاقًا من النقطة التي وصلتها القصة ." [15] وما محور السرد إلا تشاركٌ بين السرد والحوار، وتناوبٌ بين المقاطع السردية والخطاب الحواري، ودمجٌ بينهما . فهما بمثابة الكتلة الواحدة والجسد الواحد – باستنطاق الدراسات السردية – [16].

(أ) الاسترجاع [17] (Analepse)

نجد أن تقنية " الاسترجاع " (Analepse) حاضرةٌ في الخطاب الحواري للقصة العمانية القصيرة، وأقصد منها : تلك التقنية التي توجد في الخطاب الحواري طالبةً بإلحاحٍ ما وقع في الماضي، وما علق في الذاكرة من أحداثٍ . وأدرك أن هذا الطلب الملح – لهذه التقنية الاسترجاعية – لم يكن عبثًا في الخطاب الحواري، بل جاءت لوظيفةٍ فنيةٍ وضرورةٍ من ضرورياته [18] .

فحينما ننظر إلى قصص السبعينيات والثمانينيات، نجد أن القاص العماني يستحضر تقنية الاسترجاع، فهذا عبدالله الطائي في مجموعته القصصية " المغلغل " أورد حوارًا دار بين حمد و خلفان :

" – قال له حمد مرةً : أنت تحمل هم شعبك يا خلفان .

– نعم يا حمد، أنت علمتني ذلك منذ أن كنت في الصف الأول الإعدادي المسائي، وأنت تطعمني هم عمان، هو وطننا الحبيب، فسرت لي المغلغل،

وجعلتني أصل إلى الحقيقة الكبرى .

– شكرًا لك يا خلفان، فلا تلمني على حزني، إن هذا الحزن ممزوجٌ بالأمل ... الأمل أن المغلغل مغلغلٌ .

– إنني ألمح تفسير هذا المعنى، ألمحه قريبًا ... ليس ببعيدٍ، لا بد أن يقيض **الله** لهذا الشعب من يأخذ بيده، تاريخنا مليءٌ بالدلائل يا حمد .

– أجل ما في ذلك شكٌ، جاءنا البرتغال، فأنقذنا ناصر بن مرشد، طغوا وبغوا ؛ ولكن **الله** قدر وقدر، فأتى ناصر، وتبعه سلطان وسيف .

– واحتل بلادنا الفرس، وأصبح الحاكم تحت تصرفهم، فقيض **الله** لنا أحمد بن سعيد، وإنني لعلى ثقةٍ بأن الطاغية زائلٌ ..." [19]

فالطائي وظف تقنية الاسترجاع في خطابٍ حواري بين فيه حقبةً من ماضي هذا الوطن الحبيب، وكأنه يسجل الواقع ويوثق أحداثه [20]، ففي وقتٍ كان زمن السرد [21] يعيش مسيرة "خلفان" وهو ينمو ويأخذ بقدر ما يتقبل فكره من فصول حياة عمان الحبيبة في الخمسينيات، وما يشعر به من ألمٍ خالط حياته، فهو زمنٌ يعيش حاضر حياة الشخصية وما يختلجها من أحاسيس ومشاعر، جاء زمن الخطاب الحواري ليلتفت إلى الماضي ويسترجعه بتفاصيله الدقيقة، فمنذ أن كان في الصف الأول الإعدادي المسائي وفي أثناء دراسته لمادة التاريخ العماني [22] التي بينت أحداثًا مضت لهذا الشعب الصامد بمبادئه . فحصلت مفارقةٌ سرديةٌ زمنيةٌ بالخطاب الحواري [23]، إنها مفارقةٌ استعادت وقائع حدثت قبل اللحظة الراهنة ؛ أي : " اللحظة التي يتوقف فيها القص الزمني لمساقٍ من الأحداث ؛ ليدع النطاق لعملية الاسترجاع " [24] .

هذا الاسترجاع كان استرجاعًا خارجيًا (externs) – حسب رؤية جيرار جينيت – [25] ؛ لأن زمن الخطاب الحواري تناول أحداثًا وتفاصيل أسبق عن زمن السرد الحكائي، سعةً (Amplitude) ومدًى (Reach) [26] .

وعندما نتأمل قصص التسعينيات، نجد حضورًا لتقنية الاسترجاع، فهذا القاص العماني " بدر الشيدي "، وعبر قصة " تجليات حلم جميلٍ " في مجموعته القصصية " أشرعة الضوء "، يورد حوارًا استرجاعيًا بين شخصيتي القصة " خالد و ناصر " :

"... وبعد صمتٍ طويلٍ قال خالد :

– كم كانت لنا أيامٌ جميلةٌ في أبو ظبي، وقتئذٍ كان القسم الداخلي يموج بمختلف الجنسيات من الأقطار العربية .. حيث شكل نواة تفاعلٌ وتعاضدٌ .. تجمعنا المودة والمحبة .. والألفة . "

ثم بدا له أن يسترجع أحداثًا و مواقف، إلى أن " قال ناصر :

– في ذلك اليوم المشهود، كنت طفلاً صغيرًا في الصف الثاني الإبتدائي .. سمعت خالي يناديني من وراء الصف حيث عمت الفوضى المدرسة .. سحبني خالي إلى الخارج، ومنها إلى البيت، حيث وجدت أمي بانتظاري وهي قلقةٌ .. ما إن دخلت حتى احتضنتني في مشهدٍ مليءٍ بالحنان .. " [27]

إن الاسترجاع في زمن الخطاب الحواري أحدث كسرًا في زمن السرد، لأن السرد كان متفاعلاً مع زمن الحاضر، إذ " خالد يستمع لناصر بشغفٍ، والذهول يخيم عليه .. وجهه أصبح كوجه أحد الفلاحين، متجهمًا من جراء التعب والارهاق .." [28]

فاستطاع الخطاب الحواري أن يحدث بلبلةً زمنيةً ومفارقةً ذاتيةً [29] ؛ ليعود إلى الماضي، يستدعي من خلاله زمنًا قبل زمن السرد يبين جمال الأيام التي تحن إليها النفس البشرية وهي ترى تقارب القلوب وروعة التعامل فيما بينها، وكأن النفس – بهذا الاسترجاع الخارجي – تعيد قوتها وسكينتها لتعيش الحاضر المحير والمضطرب، فهذا خالدٌ يحاور ناصر قائلاً :

" – ما الذي دعاك إلى نبش ذكرياتك يا ناصر ؟! هل هي تلك الفتاة الشبيهة بطفول ..؟

– لا أدري .. لا أدري .. في هذه الأيام تسكنني حالةٌ من العودة إلى الماضي .. أشعر بأنه من العبث أن أنساه .. " [30]

لذا كان المدى الاسترجاعي – في القصة – قد

وصل إلى زمن الطفولة، وسعته قد أخذت صفحاتها التسع بكاملها، في حوارٍ شيقٍ بين خالد و ناصر مع تدخلاتٍ سرديةٍ يكمل الخطاب الحواري نموها، كشف الاسترجاع – بهذه السعة – ماضي الشخصيتين ؛ مما يدل على أثر الماضي ودوره في تكوين حاضر الشخصيتين، وما يعتريهما من تيهٍ وقلقٍ .

ولم تغفل قصص الألفين تقنية الاسترجاع – أيضًا – ، فها هي " حنان المنذري " ومجموعتها القصصية " ستائر مسدلةٌ "، تصيغ خطابًا حواريًا استرجاعيًا في قصتها المعنونة " ماء "، دار الحوار بين امرأتين قمن بزيارة معالجٍ شعبيٍ يلتمسن منه الشفاء – بعد الله –، فحتى يأتي وقت دخولهن على المعالج :

" أردفت أسألها :

– أهي زيارتك الأولى لمنزل هذا المبارك ؟

ردت وأناملها تداعب شفتي رضيعها وتناغيه :

– بل هي زيارتي الخامسة والعشرين، فما أن يمرض أحدٌ في البيت حتى نسارع بإحضاره ليعاينه هذا الرجل الصالح .

تنهدت بحسرةٍ، ثم أردفت :

– قبل مدةٍ، كان يقطن في هذه القرية معالجٌ أشد منه حنكةً وصلاحًا، لا يستغرق علاجك على يديه سوى ساعةٍ تخرجين بعدها وكأن لم يمسسك سوءٌ طوال حياتك، يخبرك قبل أن تكلميه عن اسمك واسم والدتك ومن أين جئت ومن هم أعداؤك وكيف ستمضي حياتك وعن ضروب الحظ والخيبة في مستقبلك وحاضر أيامك . كنا يا أختي لا نحمل همًا لأي شيءٍ يصيبنا لأننا نعلم أن هناك رجلاً عظيمًا يقف إلى جوارنا ويمد إلينا يد العون وقت الحاجة .. فكان الناس يفدون إليه زرافاتٍ من كل فجٍ عميقٍ، وهم متيقنون بنيل الشفاء على يديه المباركتين .

أطرقت وأردفت بحزنٍ :

– لا تدوم النعم طويلاً يا أختي فلقد حدث ما لم يكن بالحسبان ..

رفعت رأسها ثانيةً واسترسلت بانفعالٍ :

– حين قررت اللعينة زوجته بأن تودي بحياته !

– سألتها بدهشةٍ : وكيف ذلك ؟

– ردت : دست له السم في الدسم فمات في فجر يوم كئيبٍ بعد أن صلى صلاة الفجر وبعدما تناول وجبة إفطاره الأخيرة! ... " [31]

إن تقنية الاسترجاع في الخطاب الحواري أحيت قصةً أخرى في القصة الأم [32]، استطاعت " حنان المنذري " أن تجري على إثرها مقارنةً بين المعالج السابق والمعالج اللاحق، وتبين ما يتميز به المعالج السابق، من خلال شخصيةٍ تروي القصة – في الخطاب الحواري – كانت حاضرةً في القصة الأم، وقد وظفت " ضمير المتكلم " في خطابها الاسترجاعي، لتدلل على شهودها لتلك الأحداث الماضية، وتعلل وجودها عند المعالج الآني . هذا، ورغم أن المدة لم تكن محددة زمنيًا – المفهومة من قول الشخصية : "قبل مدةٍ " – إلا أننا ندرك المدى الاسترجاعي القريب نسبيًا ؛ نظرًا لحضور الشخصية الحالية في الأحداث الماضية، وبذلك لم تطل سعة الاسترجاع، فقد كانت قصيرةً ؛ لتتناسب فنيًا مع مداها، فالقصة مكونةٌ من اثنتي عشر ة صفحةً، وجاء الاسترجاع في صفحتين .

إن القاص العماني – وهو يوظف التقنيات السردية الاسترجاعية – لديه من الوعي الفني [33] ما يمكنه من بسطه في سياق عمله، وما يجعله موافقًا لمراد قصته .

(ب) الاستباق (34) (Prolepsis)

لا يشك أحدٌ في أن " الاستباق " (Prolepsis) في الشيء يحمل في طياته أملاً وتطلعًا و توقعًا وانتظارًا، إنه من حديث النفس وخيال الذهن ونظرة الواقع، إذ لا يمكن أن يستبق زمن الحدث الحاضر إلى زمن الحدث اللاحق إلا من خلال هذه القنوات، فالاستباق – في حقيقته – يحصل عند الوعي بالواقع المعاش وما يمكن أن يؤول إليه، ومن هنا تتحرك النفس في حديثها ؛ كون الاستباق " فعلٌ

يستدعي الما – بعد والغائب الذي نبتغي معرفته، وعليه ... من هذه الناحية مرتبطٌ بالنفس وزمنها، الأمر الذي أشار إليه (ابن منظور) بالقول (حديث النفس وتوقعه) ؛ أي ما تستبقه الذات معرفةً قبل أن تتيقن منه . " [35] وهذا يتطلب خيالاً [36] يفتح آفاقًا رحبةً في إعادة إنتاج وتشكيل زمن القصة عامةً والخطاب الحواري خاصة [37]، فهو يضفي أثره على سياق الكلام، فيرسل اللحظة الراهنة الراكدة إلى اللحظة المنتظرة المرتقبة ؛ مما يؤمن للتشويق والإثارة نصيبًا يبين البعد الجمالي للزمن الاستباقي .

وهذه التقنية الزمنية ولج إليها القاص العماني ؛ ليفتح لنفسه ومتلقيه معرفة " المزيد عن المستقبل المجهول والمطلق، يريد أن يسبق الزمن، يرمي إلى معرفة علة هذا الكون " [38]، لذا لمس د.شبر الموسوي " في معظم القصص أن هناك حلمًا بمستقبلٍ جديدٍ يحمل الخير في طياته، وهذه الرؤية عبر عنها أكثر من قاصٍ عماني . " [39] إلا أننا نلحظ – من خلال البحث والتقصي – أن هذه التقنية قليلة الورود في الخطاب الحواري – في القصص القصيرة محل الدراسة – مقارنةً بتقنية الاسترجاع، وقد يرجع ذلك إلى ما تتطلبه التقنية من نظرةٍ للواقع واعيةٍ وأفكارٍ للمستقبل واضحةٍ، مدعمةً بخيالٍ للتطلع قادرٍ . فهي عمليةٌ معقدةٌ أكثر من سابقتها.

ورغم ذلك، نجد أن لها حضورًا في قصص السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين – كالقاص العماني " عبدالله محمد الطائي " ؛ إذ يبرز تقنية " الاستباق " في خطابه الحواري الوطني – وهو يستبق زمن الحاضر بزمنٍ يتطلع إلى غدٍ مشرقٍ لعمان – بقصة " المغلغل رقم [8] "، فقد جاء فيها على لسان والدٍ خبر الحياة يقول لولده :

" ... وأنا حسب مسايرتي للزمن ستسير عمان إلى الأحسن . لا تنس يا ولدي أن النفط قد ظهر في عمان، وأن النفط دائمًا يأتي بحاكمٍ جديدٍ وأفكارٍ جديدةٍ وتطورٍ جديدٍ، ...، ... كلما بدأ استخراج النفط بدأ التغيير تمهيدًا للتطور، إنها إرادة الله يا ولدي . " [40]

إنها لحظةٌ كسر فيها الخطاب الحواري زمن السرد ؛ ليعلن عن زمنٍ قادمٍ، إنه زمن التغيير الذي سيطرأ على هذه الأرض، بناه الوالد على خبرته في الحياة ووعيه بالواقع المعاش " وأنا حسب مسايرتي للزمن "، وهذا الوعي يحمل فكرًا ورؤيةً واضحةً " وأن النفط دائمًا يأتي بحاكمٍ جديدٍ وأفكارٍ جديدةٍ وتطورٍ جديدٍ " ؛ فنسج بخياله – الذي بنى عليه المعطيات السابقة – زمنًا خرج من دائرة الزمن الحاضر [41]، إنه زمن " الاستباق " عندما قال : " ستسير عمان إلى الأحسن "، وقرنها بإرادةٍ " إنها إرادة الله يا ولدي . " ولذا احتاج إلى أن يكون مدى تحقيقه بعيدًا نسبيًا [42]، استغرق سنواتٍ وسنواتٍ وسنواتٍ من عمر النهضة العمانية المشار إليها . إن تقنية " الاستباق " وظفها [43] القاص لتعلن البشرى للشعب العماني ؛ إنها بشرى التغيير إلى الأفضل والأحسن .

وسعى القاص في التسعينيات من القرن العشرين من توظيف هذه التقنية ؛ بل حمل أفكار شخصياته وخيالاتها ورؤيتها المستقبلية فيها، ومن هؤلاء القاصين : " بدر الشيدي " في مجموعته القصصية " أشرعة الضوء "، إذ جاء في قصةٍ بذات عنوان المجموعة، في الجزء الثالث منها، خطابٌ حواريٌ بين شخصيتي القصة : مرزوقٍ و راشدٍ

" قال مرزوقٌ :

– ولكن . أنت تعرف أن رحلات النوخذة تطول، ولا يقصد جهةً معلومةً .. وكل سفرةٍ تأخذ لها أربعة أشهرٍ وممكن تزيد .. المهم أني سأكلم النوخذة .. لكن ما أدري إلى أين اتجاهه .

قال راشد : الهند – السند – المهم أسافر .

(البقية بموقع المجلة على الانترنت)